. . . . . .

= الصحيفة مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد المطلب بن عبد مناف وقال: هذا ظلم وختموا الصحيفة بأربعين خاتماً ختمها كلّ رجل من رؤساء قريش بخاتمه وعلقوها في الكعبة وتابعهم على ذلك أبو لهب وكان رسول الله ﷺ يخرج في كلّ موسم فيدور على قبائل العرب فيقول لهم: تمنعون لي جانبي حتى أتلو عليكم كتاب ربكم وثوابكم الجنة على الله وأبو لهب في أثره فيقول: لا تقبلوا منه فإنه ابن أخي وهو كذاب ساحر، فلم يزل هذا حالهم وبقوا في الشعب أربع سنين لا يأمنون إلا من موسم إلى موسم ولا يشترون ولا يبايعون إلا في الموسم وكان يقوم بمكة موسمان في كلّ سنة: موسم العمرة في رجب وموسم الحج في ذي الحجة فكان إذا اجتمعت المواسم تخرج بنو هاشم من الشعب فيشترون ويبيعون ثم لا يجسر أحد منهم أن يخرج إلى الموسم الثاني وأصابهم الجهد وجاعوا وبعث قريش إلى أبي طالب قصيدته اللّامية فلما سمعوا هذه القصيدة أيسوا منه وكان أبو العاص بن الربيع - وهو ختن رسول الله ﷺ - يأتي بالعير بالليل عليها البر والتمر إلى باب الشعب ثم يصبح بها فتدخل الشعب فيأكله بنو هاشم وقد قال رسول الله ﷺ: لقد صاهرنا أبو العاص فأحمدنا صهره، لقد كان يعمد إلى العير ونحن في الحصار فيرسلها في الشعب ليلاً ولما أتى على رسول الله ﷺ في الشعب أربع سنين بعث الله على صحيفتهم القاطعة دابة الأرض فلحست جميع ما فيها من قطيعة وظلم وتركت «باسمك اللّهم» ونزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فأخبر رسول الله ﷺ أبا طالب فقام أبو طالب ولبس ثيابه ثم مشى حتى دخل المسجد على قريش وهم مجتمعون فيه فلما أبصروه قالوا: قد ضجر أبو طالب وجاء الآن ليسلّم ابن أخيه فدنا منهم وسلم عليهم فقاموا إليه وعظّموه وقالوا: قد علمنا يا أبا طالب أنك أردت مواصلتنا والرجوع إلى جماعتنا وأن تسلّم ابن أخيك إلينا، قال: والله ما جئت لهذا ولكن ابن أخي أخبرني ولم يكذبني أن الله تعالى أخبره أنه بعث على صحيفتكم القاطعة دابة الأرض فلحست جميع ما فيها من قطيعة رحم وظلم وجور وترك اسم الله فابعثوا إلى صحيفتكم فإن كان حقاً فاتقوا الله وارجعوا عما أنتم عليه من الظلم والجور وقطيعة الرحم وإن كان باطلاً دفعته إليكم فإن شئتم قتلتموه وإن شئتم استحييتموه فبعثوا إلى الصحيفة وأنزلوها من الكعبة وعليها أربعون خاتماً فلما أتوا بها نظر كلّ رجل منهم إلى خاتمه ثم فكّوها فإذا ليس فيها حرف واحد إلا «باسمك اللهم» فقال لهم أبو طالب: يا قوم اتقوا الله وكفوا عما أنتم عليه فتفرق القوم ولم يتكلم أحد ورجع أبو طالب إلى الشعب.

في بحار الأنوار ١٩: ٣٩ روي أنهم ضربوا علياً وحبسوه ساعة ثم تركوه وأورد الغزالي في إحياء العلوم أن ليلة بات علي بن أبي طالب عليه السلام على فراش رسول الله ﷺ أوحى الله تعالى إلى جبرئيل وميكائيل أني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بحياته؟ فاختار كلّ منهما الحياة وأحباها فأوحى الله تعالى إليهما: أفلا كنتما مثل =

ولقد باهى الله جبريل وميكائيل بتضحية علي عليه السلام ليلة المبيت في الأخوة المحمدية العلوية عليه السلام [١] وقد يروى عنه عليه السلام قوله في قصة المبيت: فأسرعت إلى ذلك مطيعاً له مسروراً فالكتاب والسنة - كلمة واحدة

= علي بن أبي طالب عليه السلام آخيت بينه وبين محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه فكان جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبرئيل ينادي بخّ بخّ من مثلك يا بن أبي طالب؟ يباهي الله بك الملائكة فأنزل الله عزوجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

(١) وفيه ٤٦ ك قال أمير المؤمنين عليه السلام في جواب اليهودي الذي سأل عما فيه من علامات الأوصياء فقال فيما قال: وأما الثانية يا أخا اليهود فإن قريشاً لم تزل تخيل الآراء وتعمل الحيل في قتل النبي صلى الله عليه وآله حتى كان آخر ما اجتمعت في ذلك يوم الدار: دار الندوة، وإبليس الملعون حاضر في صورة أعور ثقيف فلم تزل تضرب أمرها ظهراً لبطن حتى اجتمعت آراءها على أن ينتدب من كلّ فخذ من قريش رجل ثم يأخذ كلّ رجل منهم سيفه ثم يأتي النبي صلى الله عليه وآله وهو نائم على فراشه فيضربونه جميعاً بأسيافهم ضربة رجل واحد فيقتلوه فإذا قتلوه منعت قريش رجالها ولم تسلمها فيمضي دمه هدراً، فهبط جبرئيل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وآله فأنبأه بذلك وأخبره بالليلة التي يجتمعون فيها والساعة التي يأتون فراشه فيها وأمره بالخروج في الوقت الذي خرج فيه إلى الغار فأخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله بالخبر وأمرني أن أضطجع في مضجعه وأقيه بنفسي فأسرعت إلى ذلك مسروراً لنفسي بأن أقتل دونه فمضى صلى الله عليه وآله لوجهه واضطجعت في مضجعه وأقبلت رجالات قريش موقنة في أنفسها أن تقتل النبي صلى الله عليه وآله فلما استوى بي وبهم البيت الذي أنا فيه ناهضتهم بسيفي فدفعتهم عن نفسي بما قد علمه الله والناس، ثم أقبل على أصحابه فقال: أليس كذلك؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

وفيه ٥٢ شيء عن زرارة ومحمد بن مسلم عن أحدهما عليه السلام أن قريشاً اجتمعت فخرج من كلّ بطن أناس ثم انطلقوا إلى دار الندوة ليشاوروا فيما يصنعون برسول الله صلى الله عليه وآله فإذا هم بشيخ قائم على الباب وإذا ذهبوا إليه ليدخلوا قال: أدخلوني معكم قالوا: ومن أنت يا شيخ؟ قال: أنا شيخ من مضر ولي رأي أشير عليكم فدخلوا وجلسوا وتشاوروا وهو جالس وأجمعوا أمرهم على أن يخرجوه فقال: ليس هذا لكم برأي. إن أخرجتموه أجلب عليكم الناس فقاتلوكم، قالوا: صدقت ما هذا برأي، ثم تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يوثقوه قال: هذا ليس بالرأي إن فعلتم هذا ومحمد رجل حلو اللسان أفسد عليكم أبناءكم وخدمكم وما ينفعكم أحدكم إذا فارقه أخوه وابنه أو امرأته ثم تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يقتلوه، يخرجون من كلّ بطن منهم بشاهر فيضربونه بأسيافهم جميعاً عند الكتفين ثم قرأ الآية ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. =

- متجاوبان في أفضلية الموقف المشرّف لمبيت الإمام علي عليه السلام على موقف أبي بكر في الغار، حيث المدار ليس هو الصحبة في المكان، إنما هو التضحية في الحفاظ على الصاحب[1].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾:

هنا ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ تعني سمع الأذن دون القبول بسمع القلوب والعقول - رغم ما حققوه بـ ﴿قَدْ﴾ كأنهم واعون ما سمعوا - إنما هو سماع للهزء بما يسمعون كذريعة لقيلتهم الغيلة: ﴿لَّوْ نَشَآءُ﴾ ولحصرهم آيات الله المتلوة عليهم بأساطير الأولين، وترفُّعِهم - بزعمهم - عن الأساطير، يُحيلون على

= وفيه في قصة المبيت قول الرسول صلى الله عليه وآله لعلي: إن الروح هبط عليّ بهذه الآية آنفاً يخبرني أن قريشاً اجتمعت على المكر بي وقتلي وأنه أوحي إلي عن ربي عز وجل أن أهجر دار قومي وأن أنطلق إلى غار ثور تحت ليلتي وأنه أمرني أن آمرك بالمبيت على ضجاعي - أو قال: - مضجعي لتخفي بمبيتك عليه أثري فما أنت قائل وصانع؟ فقال علي عليه السلام: أو تسلمن بمبيتي هناك يا نبي الله؟ قال: نعم فتبسم عليّ ضاحكاً وأهوى إلى الأرض ساجداً شكراً لما أنبأه به رسول الله صلى الله عليه وآله من سلامته فكان علي عليه السلام أوّل من سجد شكراً لله وأوّل من وضع جبهته على الأرض بعد سجدته من هذه الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فلما رفع رأسه قال له: امض لما أمرت فداك سمعي وبصري وسويداء قلبي ومرني بما شئت أكن فيه كمسرتك واقع منه بحيث مرادك وأن توفيقي إلا بالله وقال: وإن ألقي عليك شبه مني أو قال: شبهي، قال: إن يمنعني نعم، قال: فارقد على فراشي واشتمل ببردي الحضرمي ثم إني أخبرك يا علي أن الله تعالى يمتحن أولياءه على قدر إيمانهم ومنازلهم من دينه فأشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل وقد امتحنك يابن أم وامتحنني فيك بمثل ما امتحن به خليله إبراهيم عليه السلام والذبيح إسماعيل عليه السلام فصبر صبراً فإن رحمة الله قريب من المحسنين، ثم ضمه النبي صلى الله عليه وآله إلى صدره وبكى إليه وجداً به وبكى عليّ عليه السلام جشعاً لفراق رسول الله صلى الله عليه وآله واستتبع رسول الله صلى الله عليه وآله أبا بكر وهند بن أبي هالة.

(١) المصدر ٥٥ ما جماعة عن أبي المفضل معنعناً عن مجاهد قال: فخرت عائشة بأبيها ومكانه مع رسول الله صلى الله عليه وآله في الغار فقال عبد الله بن شداد بن الهاد: وأين أنت من علي بن أبي طالب عليه السلام حيث قام في مكانه وهو يرى أنه يقتل؟ فسكتت ولم تحر جواباً.

أنفسهم أن يقولوا مثل هذا رغم إمكانيتهم ذاتياً لقوله كما يتقولون[١] وكأنهم يترفعون أن يعارضوا هذه الأساطير بأساطير أمثالها إذ لا يعتبرونها مما يعارَض لضالتها، وبعدهم عن الأساطير!

فـ «لو» هنا صدٌ عن السؤال: قولوا مثل هذا، كما أن ﴿نَشَآءُ لَقُلْنَا﴾ هدم لصرح الربانية لهذه الآيات البينات، وما أنحسه مواجهة لآيات الله، وما أضله البسطاء الذين لا يعقلون! وهنا يبقى سؤال، هل إن إبطال هذه الآيات أحرى للعاقل في محكمة العقل كما تدَّعون، أو التورط فيما تستاوؤن - زعَم أنه من الأساطير - لذلك الإبطال حتى تتخلصوا عن عبء هذه الدعوة المتلاحقة ويتخلص الآخرون؟ إذاً فهذه وتلك هي من الدعاوي الهاوية الخواء الغاوية البواء، وليست الدعوى بمجردها مهما كانت براقة، بالتي يواجه بها البرهان، فهي هيه من أساطير الأولين، دون آيات الله البينات التي تملك على صدقها من كافة البراهين، وإنما السكوت عن ردهم فيما ادعوا لظاهر بطلان دعواهم دونما نكير، حيث الدعوى المجردة ولا سيما هذه الطائلة الغائلة ليست بالتي ترد على آيات الله البينات التي هي بأنفسها أدلة لربانيتها مصدراً وصادراً.

ذلك، وقد وصل العناد من هؤلاء الأنكاد الأوغاد لحد تطلبوا لأنفسهم من الله الهلاك إن كان هذا هو الحق:

(١) في الدر المنثور ٣: ١٨٠ عن السدي قال: كان النضر بن الحارث يختلف إلى الحيرة فيسمع سجع أهلها وكلامهم فلما قدم إلى مكة سمع كلام النبي ﷺ والقرآن فقال: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين، وفيه عن سعيد بن جبير قال: قتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله قال المقداد يا رسول الله ﷺ: أسيري فقال رسول الله ﷺ: كان يقول في كتاب الله ما يقول، قال: وفيه أنزلت هذه الآية.

﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾:

دعاء غريب يصور حالة راسبة من العناد ضد الحق المُرام، إيثاراً للهلاك على الإذعان بالحق، حيث فسدت جبلتهم بالكبرياء الجامحة، وأخذتهم العزة بالإثم فحسبهم جهنم وبئس المهاد.

هنا ﴿إِن كَانَ هَٰذَا﴾ لا تختص بمشار إليه خاص، فقد تعني كافة المتعنتين القائلين هذا، الغائلين، سواء أكان في مسرح الآيات الربانية الإسلامية - ككل - أم سواها، أم في مسارح خاصة في حقل الإسلام كولاية الأمر بعد الرسول ﷺ، أنهم - ككل - ودون أيَّة هوادة يرجحون عذاب الله على تصديق آية من الله لا يهوونها، وهذه هي الخطوة الأخيرة الشيطانية التي يخطوهم بها الشيطان.

ذلك، وجواباً عن أمثال هذه الشطحات الزور والغُرور من أحابيل الغرور:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

فكون الرسول ﷺ فيهم - رغم أنهم ناكروه - إنه صيانة لهم عن عذاب الله مقترحاً وسواه، وصيانة أخرى على طول الخط - كان فيهم الرسول أم لم يكن فيهم - ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فـ ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ محطٌّ لسلب محدَّد بـ ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ ولكن ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ سلب طليق ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ سواء أكنت ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ أم لم تكن.

فتلك هي الرحمة المحمدية العالمية أن الله لا يعذب الكافرين به ما هو فيهم، ثم يتوب عن ذلك ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فقد «كان في الأرض أمانان من عذاب الله سبحانه فرفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به، أما الأمان

الذي رفع فهو رسول الله ﷺ وأما الأمان الباقي فالاستغفار»[١] فقد كان مماته إلى حياته خيراً لنا[٢] لهذين الأمانين.

وترى العذاب المنفي ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾[٣] هو مطلق العذاب الشامل لقتلهم؟ وقد قتل جمع منهم في غزوات! إنه عذاب الاستئصال كما لم يعذبوا به ما كان ﷺ فيهم، ثم ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ تعم إلى عذاب القتال عذاب البرزخ والقيامة.

ذلك، فقد يعذبون بعد ارتحال النبي ﷺ عنهم وهم لا يستغفرون، بعذاب الاستئصال وما أشبه، الواقع على سالفة الأمم المتخلفة عن شرعة الله.

وليس عذاب القتال ينافي كونه ﷺ رحمة للعالمين، فإن فسح المجال للمكذبين الفاتنين ينافي أصل الرحمة الأصيلة المحمدية حيث يستأصل دعوته، وإنما هي الرحمة التي لا تشكل زحمة على الذين آمنوا.

---

(١) نور الثقلين ٢: ١٥٣ وحكى أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال: كان قال الله جلَّ من قائل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ...﴾ [الأنفال: ٣٣].

(٢) المصدر ١٥١ في روضته الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: إن لكم في حياتي خيراً وفي مماتي خيراً، قال: فقيل يا رسول الله ﷺ أما حياتك فقد علمنا فما لنا في وفاتك؟ فقال: أما في حياتي فإن الله عزوجل يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ وأما في مماتي فتعرض علي أعمالكم فاستغفر لكم.
وفي الدر المنثور ٣: ١٨١ - أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: أنزل الله علي أمانين لأمتي ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة.
وفيه ١٨٢ - أخرج أحمد والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ: إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، قال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني، وفيه عنه ﷺ قال: من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كلّ هم فرجاً ومن كلّ ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

أجل، إنها رحمة ربانية - إكراماً لمحمد ﷺ - تشملهم فتمهلهم فلا يأخذهم الله عجالة بعذاب الاستئصال الاستعجال، مهما يؤخذون بسائر العذاب قضية صدهم عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، فصدهم بقتال وسواه عما يصدون، فليس ليصدهم عن ذلك العذاب ما يدعونه من كونهم ورثة إبراهيم وسدنة البيت الحرام، أم لأنهم أولياء الله، فإنهم أعداء الله وأعداء البيت الحرام ومغتصبوه، وليس البيت الحرام ميراثاً حتى لو كان ميراثاً من إبراهيم، بل هو البيت العتيق عن كل اختصاص بوجه خاص، اللَّهم إلا لأولياء الله المتقين.

ذلك فقد يعذبهم الله دون هذين الشرطين دون عذاب الاستئصال ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾:

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

فليس - فقط - لأنهم أميون ﴿أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وهم لا يتقون، ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ولست أنت فيهم ولا هم يستغفرون الله ﴿وَهُمْ﴾ على كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ﴿يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ دونما حق يُحق لهم ذلك الصد.

ذلك! «و» الحال أنهم ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ الله، ولا كانوا أولياء المسجد الحرام من قبل الله ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾: الله، والمسجد الحرام ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ فإنما لأولياء الله وأولياء المسجد الحرام من أولياء الله أن يصدوا من سواهم عن المسجد الحرام، فـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[1].

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

فالصادُّون عن المسجد الحرام، المشركون بالله، هم أصول الفتنة ضد الموحدين وشرعة التوحيد، فلا يُسمح لهم بذلك الصدّ، بل ويعذبهم الله بأيدي المؤمنين حرباً كما يعذبهم بما يشاء كيف يشاء حفاظاً على العاصمة التوحيدية عن ذلك الصد الظالم الغاشم.

ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنهم ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ و﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنهم معذبون و﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾.

أجل، «ألا إن أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم، ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً، ودَرَكهم لها فوتاً، أعداءُ ما سالم الناس، وسِلمُ ما عادى الناس، بهم عُلم الكتاب وبه علموا، وبهم قام الكتاب وبه قاموا، لا يرون مرجوّا فوق ما يرجون، ولا مخوفاً فوق ما يخافون»[(١)].

ذلك، وحين يصد أعداء الله أولياءَه عن المسجد الحرام، فما هم فيه فاعلون؟

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾:

تلك اللعينة هي صِلاتهم بالله إشراكاً به، وبأهل الله صداً عن المسجد الحرام كفراً به، وهذه صَلاتهم عند البيت ﴿مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ تصغيراً وتصفيقاً[(٢)] هما من اللهو واللغو المناسبين لمسارح الفسق والرقص، وفي

(١) (الحكمة ٤٢٢).

(٢) المصدر ١٨٣ - أخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله ﷻ: ﴿إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ [الأنفال: ٣٥] قال: المكاء صوت القنبرة والتصدية صوت العصافير وهو التصفيق وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة وهو بمكة =

أقدس مكان من أمكنة الوحي والعبادة، وذلك ثالوث منحوس من مستحقات العذاب: تكذيب بآيات الله، وصدٌ عند المسجد الحرام، ومكاء وتصدية فيه ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

وهذه طبيعة الحال النحسة لقبيل الكفر أنهم يصرفون كل طاقاتهم، و﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صداً للمؤمنين بالله تضليلاً لهم، أم وصداً عن تطبيق أحكام الله كما يصدون عن المسجد الحرام، وصداً للمستضعفين المتحرين عن الحق، أو الحائرين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فكيانهم ككلٍّ هو الصد عن سبيل الله.

ذلك ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ فيما يهوون ويشتهون ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ في الدارين، لا فقط ﴿حَسْرَةً﴾ بل ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ غَلَباً بعد الحسرة وقلة بعد الكثرة، هنا وفي الآخرة، ثم مصيرهم إلى النار ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿. . . إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ مع بعضهم البعض متميزين عن أهل الجنة ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ في ذلك الحشر كما تميزوا يوم الدنيا عن الطيبين ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ظلمات بعضها فوق بعض -

= كان يصلي قائماً بين الحجر والركن اليماني فيجيء رجلان من بني سهم يقوم أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ويصيح أحدهما كما يصيح المكاء والآخر يصفق بيديه تصدية العصافير ليفسد عليه صلاته.

﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ في ذلك الحشر الحاشد، ثم ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، فذلك التعبير القرآني يجسم الخبيث كأنه كومة من الأقذار لهؤلاء الخبثاء الأقذار، وعندما يصل السياق إلى ذلك التقرير عن مصير الكفر، يتجه بخطاب إلى الرسول ﷺ ليقول لهم قولة الرحمة إن تابوا وانتهوا:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

ضابطة فقهية كلامية هي بصيغة السنة: «الإسلام يجب - يهدم - ما - كان - قبله»[(١)] و مهما كانت هذه الرواية ضعيفة السند ومحدودة الدلالة، فهذه الآية تجبر كسرها فيهما[(٢)].

هنا ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ طليقة تحلق على كل ألوان الكفر إلحاداً وإشراكاً وكتابياً، فـ ﴿إِن يَنتَهُوا۟﴾ تعني الانتهاء عن الكفر أياً كان بكل مخلفاته، فهو الانتهاء المطلق دون مطلق الانتهاء، حيث المتعلق للانتهاء

(١) الدر المنثور ٣: ١٨٤ - أخرج ابن أحمد ومسلم عن عمرو بن العاصي قال: لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: أبسط يديك لأبايعك فبسط يمينه فقبضت يدي قال: ما لك؟ قلت أردت أن تشترط، قال: تشترط ماذا؟ قلت: أن يغفر لي قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله.

(٢) أذكر حينما كنت بالنجف الأشرف في هجرتي إلى الله من شر الطاغوت: الشاه عليه لعنة الله، وكنت أتردد إلى مجلس الاستفتاء للمرجع الديني الكبير السيد الخوئي، مشاورة في مختلف الفتيا، وأنا متكفل الجانب الفقهي القرآني إضافة إلى سواه، ذكر فيما كان يحققه في أسناد الروايات أنني وجدت حديث الجب غير مسنود فلا يصح أن يفتي به، فتلوت عليه هذه الآية قائلاً: إذا كان حديث الجب ضعيفاً فآية الجب قوية، فاستطار حيرة وقال: حقاً نحن بعيدون عن كتاب الله، نفتش بعد ردح بعيد من الزمن عن سند حديث الجب، غافلين أن هناك آية الجب هي أقوى دلالة وأظهر، ولقد كانت أمثال هذه النبرات القرآنية مما يغيظ جمعاً من الجاهلين بالقرآن، التاركين إياه إلى سواه.